مئويّات. من الأُحاديّة المنغلقة إلى الثقافة المنفتحة

لا شكّ في أنّ قضيّة الثقافة بصفة كونها مقولةً فكريّة، لا تزال تشغل الكثير من المفكّرين والمبتنّين بقضايا الإنسان الأساسيّة، خصوصًا إثر سقوط جدار برلين في العام ١٩٨٩، وصعود الإيديولوجيّات القوميّة وأشكال التطرّف الدينيّ. وآخر النظريّات في موضوع الثقافة، وهي من صياغة صموئيل هونتنغتن، الباحث في جامعة هارفرد الأميركيّة، تقول بأنّ الانقسامات الكبيرة في عالم اليوم لم تعد اقتصاديّة أو سياسيّة، بل هي ثقافيّة، وبأنّ العالم يعيش على توازن ستّ قوى حضاريّة عظيمة أو سبع تتقاسم البشريّة، وهذه القوى هي: الإسلام، والصين، والهند، واليابان، والعالم الأرثوذكسيّ، وأفريقيا، والغرب. فالهويّة الثقافيّة الأُحاديّة المؤسَّسة على التراث الحضاريّ واللغة والدين هي المرجع، وهي التي تحدّد الصديق من العدوّ. والسؤال الذي يُطرح اليوم هو التالي: «مَن أنتَ؟» أو بالأحرى: «مَن أنتَ بالنسبة إلى الآخرين؟»

ليس من مهمّتنا أن نقوم، في هذه الافتتاحيّة، بنقد نظريّة هونتنغتن، بوجه شامل، أو حتّى بوجه جزئيّ. ما نقوله إنّ هذه النظرة إلى الثقافة هي مشروع يشوّهها، ودعوة إلى انغلاقيّة على الذات، واستبعاد الغيريّة التي هي مصدر ثقة، وتحويل الآخر إلى مجرّد جدار، بدل أن يكون مصدر ثراء متبادل على جميع المستويات. لا نسرّ في هذا المجال ما أدّت إليه النظرة الفوقيّة المتعالية الأُحاديّة التي اتّسمت بها الثقافة الألمانيّة الجرمانيّة: لقد كانت إغراقًا في العصبيّة ونزولًا إلى الدَّرَك الأسفل وانفلات الغرائز.

وما يثبّتنا في رؤيتنا هذه، «المئويّاتُ» التي تذكرها المشرق في عددها هذا، وأولى تلك «المئويّات» المئة سنة الأولى من عمر مجلّتنا،

وقد أُسِّست في العام ١٨٩٨، بإدراك عميق من الأب لويس شيخو اليسوعيّ، وخاطرة فريدة صدرت عن فكره النيّر.

فالمشرق، في نظر شيخو، كانت ولا تزال مشروعًا ثقافيًا في خدمة النهضة الفكريّة العربيّة، وهذا ما يشدّد عليه البروفسور أميف ستّو، مدير معهد الآداب الشرقيّة بجامعة القدّيس يوسف، في المقال الذي كتبه بعنوان «المشرق والآداب العربيّة منذ جاهليّتها حتّى الحرب العالميّة الأولى».

والمئويّة الثانية التي تصبّ في قناة الحوار الثقافيّ بين الشعوب هي المئويّة الثامنة لوفاة أبي الوليد محمّد بن رشد، الذي عمل على التوفيق بين الشريعة والفلسفة، ودافع عن الفلسفة في تهافت التهافت، وشرح أرسطو شرحًا وافيًا، ممّا دفع الغربيّين إلى نقل أعماله إلى اللاتينيّة. وهذه الذكرى أثبت قيمتها البروفسور جاك لانغاد في مقال كتبه حول «الإيمان والعقل» عند ابن رشد، عبر وجهات نظر تاريخيّة وفلسفيّة.

والذكرى الثالثة هي ذكرى المئويّة الأولى للكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة في مصر، وقد كتب في هذا الأمر الأب موريس مارتان عن «هويّة هذه الكنيسة ورسالتها»، والأب جاك ماسون حول «الأصوام في التقليد القبطيّ وجذورها التاريخيّة». والكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة قامت، منذ نشأتها الرسميّة قبل مائة عام، بجليل الأعمال في خدمة الإيمان والعلم والعدالة الاجتماعيّة والفكر والانفتاح الثقافيّ في الديار المصريّة.

الكلمات في هذه المئويّات، والمقالات الأدبيّة والفكريّة والتاريخيّة والأخلاقيّة التي ترافقها في هذا العدد من المشرق، هي خير دليل على أنّ الثقافة ليست دعوة إلى الأحاديّة واختزال الآخر، بقدر ما هي شهادة على أنّ الواقع البشريّ هو واحد ومتعدّد في آن معًا، وأنّ الدعوة إلى التكتّلات المتقابلة، بحسب نظريّة الأميركيّ هونتنغتن، هي دعوة إلى التحجّر. وحدَها القيَم المشتركة بين البشر التي تكوّن التراث الحضاريّ الروحيّ، هي الطريق إلى الحوار والتفاعل والتآخي ضمن ممارسة العقل والحرّيّة المسؤولة ممارسةً صريحة. وحدَها الثقافة التي تتبع خُطى «مصير» ابن رشد هي الثقافة الواعدة. •